وذروا ظاهر الإثم وباطنه

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون، يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ وقال جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعن ضمرة بن حبيب فيما رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق قال: قال رسول ﷺ: «إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله، يستكثرونه ويزكونه، حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي- أي على ما يظهر ويتجلى منه- وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي ولم يخلص عمله، فاجعلوه في سجين. ويصعدون بعمل العبد يستحقرونه ويستقلونه، حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا أخلص عمله فاكتبوه في عليين» وعن العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ:«يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار، وحتى يخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي قوم يقرؤون القرآن، فإذا قرأوه قالوا قد قرأنا، فمن أقرؤ منا، فمن أعلم منا، ثم التفت إلى أصحابه فقال: هل ترون في أولئك من خير؟ قالوا لا، قال: فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك وقود النار»

سر العمل الإخلاص لله، وبطلانه وإحباط أجره في جعل هذا العمل لغير الله، ابتغاء سمعة، ابتغاء ثناء، ابتغاء استعلاء على الآخرين.

أيها المسلمون، أقف عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ تزكية النفس واجب على كلٍ منا، وشرط النجاة والفلاح، وتجنب الآثام ظاهرها وباطنها واجب أكدت الآيات والأحاديث ضرورة ذلك، وسطوة النفس وسلطانها على صاحبها مشكلة لا مخرج منها إلا بتزكيتها. للنفس سلطانها على صاحبها تزج به في الأخطاء والمعاصي، وهذا ما يشكوه كل منا من نفسه وضعفه، فما المخرج من هذه الحالة التي

نعاني منها؟ إن المخرج من ذلك كله بتزكية هذه النفس. والتزكية هي التطهير، والمراد: تطهير النفس من عيوبها وأمراضها الظاهرة والباطنة، روى الحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: **«الكيس** – العاقل – **من دان نفسه**– جلس إلى نفسه فحاسبها، فإذا وفق لخير فالله هو الذي وفقه فليحمد الله وليسأل الله القبول– **وعمل لما بعد الموت**– وضع الموت نصب عينيه، وتزود لهذا الموت بالزاد اللائق، إذ سيقوده الموت إلى موقفه بين يدي ربه، لذلك عليه أن يتأمل أمره وينظر في حاله فيحاسب نفسه، وليتزود للرحلة الخطيرة التي لابد له منها، رحلته إلى الله عزَّ وجل– **والعاجز** – الأخرق، الأحمق – **من أتبع نفسه هواها**– استرسل في طاعة نفسه فيما تشتهيه من أمور مخالفة لأمر الله عزَّ وجل – **ثم تمنى على الله»** يحلم بأن يكون في الجنة وبأن يسعد في الآخرة مع أنه لم يُعِدّ لذلك عُدته، ولم يتزود لذلك بالزاد اللائق له. والتزكية إنما تكون بتجنب الآثام الظاهرة، الآثام الظاهرة: آفات اللسان كالكذب والغيبة والنميمة والسب والشتم واللغو والكلام الباطل، كل ذلك من الآفات الظاهرة، لابد من تجنب هذه الآفات الظاهرة لكي نطهر أنفسنا فنرقى إلى مرتبة القبول عند الله ﷻ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهرها من آثامها من عيوبها من معاصيها، ردعها وزجرها وحال بينها وبين مخالفة أمر الله ﷻ، إلا أن هذه الآثام التي يخشى الإنسان من أن يقع فيها، منها ما هو ظاهر كآفات اللسان التي عرضتها، وكأن أمد يدي إلى المال الحرام، أو أطلق بصري إلى مالا يرضي الله ﷻ من المشاهد والمرئيات مما حرم الله علينا النظر إليه، ومما ينعكس على قلوبنا بالفساد والضلال والانحراف، وإمساك اللسان وإمساك البصر وإمساك السمع، وكف اليد عن إيذاء الآخرين، عن التعدي على أموالهم، عن الإساءة إليهم وظلمهم، بأي شكل من أشكال الظلم والاعتداء، فإذا كففت نفسك عن الآثام الظاهرة وهو أمر ضروري وقد يكون صعباً بعض الشيء. إلا أن كف النفس عن الآثام الباطنة أشد ضرورة وأخطر في حياة الإنسان المسلم، فما الآثام الباطنة؟ ترى الرجل يبدو لك أنه من أهل الصلاح والتقى، ولكن قلبه ينطوي على آفات خطيرة لا تدع أحواله التي تظهر منه ما يرقى به إلى الله عزَّ وجل، وقد مر بنا الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك، أن الملائكة يرفعون إلى ربهم عزَّ وجل عمل إنسان، يستكثرونه ويعظمونه ويزكونه حتى يبلغوا به إلى ما شاء الله من سلطانه، فيوحي إليهم أنكم حفظة على ظاهر عمل عبدي، فهو جلس في المساجد ووقف يصلي ومظهره مظهر المؤمنين الصالحين هذا ما بدا لكم، لكن قلبه إنما هو موضع نظر الله عزَّ وجل وأنا رقيب على ما في نفسه، ما في قلبه إن

كان مخلصاً لله أو مرائياً للخلق، فإن كان مخلصاً لله عزَّ وجل فقليل من العمل يرقى إلى القبول وينتفع به العبد، وإذا كان غير مخلص لله في عمله فكثير من العمل لا خير فيه، يقول له الله عزَّ وجل أنا أغنى الشريكين خذ أجرك ممن عملت لهم، قضية الإخلاص لله عزَّ وجل في العمل هي من أهم ما ينبغي أن يلاحظ المرء في قلبه عندما ينظر إلى عمله ويلاحظ سلوكه وتصرفاته، هناك ما يسمى بباطن الإثم، والذي حذرنا ربنا تبارك تعالى منه عندما قال: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ مِن باطن الإثم: الحقد الذي ينطوي عليه قلب الإنسان فيدفع به إلى العدوان، ويدفع به إلى المواقف الضارة والمفسدة، لا ينطوي قلب الإنسان المؤمن مادام مؤمناً على حقد، إنه يرجو الخير لكل الخلق حتى للكفرة، هو يرجو الخير للكافر بان يهديه الله عزَّ وجل وينجيه من النار، ليس في قلب الإنسان المؤمن حقد، الحقد مرض ينم عن أن هذا الإنسان إيمانه غير صحيح، وأن إيمانه غير صاف من زغله، الحسد: الحسد تمني زوال النعمة عن إخوانه، ضاق صدره بما قسم الله عزَّ وجل للناس، إنه مشكلة خطيرة، إذ يضيق صدر المرء بما حبا الله فلاناً من مال، بما حبا الله فلاناً من ذكاء، بما حبا الله تعالى إنساناً من صلاح وتقى، بما حباه الله عزَّ وجل من مكانة اجتماعية جعلته محبوباً بين الناس محترماً بين الخلق، هذا الحسد مرض خطير قاتلٌ لصاحبه، يودي به إلى الهلاك، حذر النبي ﷺ وحذر ربنا من باطن الإثم الذي يهلك صاحبه، وهو أخطر من ظاهر الإثم، ظاهر الإثم يمكن أن يراك أحد الإخوة المخلصين لك فيقول لك يا أخي هذا خطأ، فلو أقلعت عنه. أما باطن الإثم فداء خفي لا يراه الناس وإنما يطلع عليها رب الناس، الذي يعلم السر وأخفى، وهذا مما قد يؤدي إلى مواقف سلوكية هي أخطر من المعاصي العادية التي نعرفها. من أخطر باطن الإثم: النفاق بكل أنواعه وبكل تداعياته ونتائجه، المنافق يظهر شيئاً ويبطن شيئاً آخر، ومنه أيضاً العجب: بأن أعمل العمل فأرى لنفسي فضلاً فيه ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ بماذا تزكي نفسك؟ أأنت ترى لنفسك فضلاً فيما قد وفقت له؟ إذا ما وفقت لعمل فاشكر الله على ذلك وسل الله القبول، أما أن تُعجَب بعملك فذلك شركٌ منك بربك ﷻ، أشركت نفسك مع الله ﷻ، وجعلت تنظر إلى خصال الخير التي وفقك الله لها أنها منك أنت وإنما هي من فضل الله عليك، وقد قال ابن عطاء: (من تمام فضل الله عليك أن خلق فيك ونسب إليك) هو الذي وفقك فاحمد الله على ما وفقك، ومن الأمراض الباطنة: الكبر، أن يرى لنفسه تفضلاً ومنزلة أعلى من إخوانه يستعلي عليهم بأي صفة كانت لماذا تستعلي؟ أنت ضعيف أنت فقير، لو استعليت بمالك فإن الله قادر على أن يجردك من

المال في لحظة واحدة، كم من غني تنكست حالته ما بين ليلة ونهار فانقلب إلى أفقر الناس، وكم من صحيح قوي البنية أودى به المرض فرماه في الفراش فبدا عاجزاً عن كل شيء، وكم من ذكي فقد ذكاءه فأصبح معتوهاً يوم ابتلاه الله عزَّ وجل بتجريده من ذكائه. لا تتكبر بشيء لا تملكه، هو فضل من الله عليك اشكر الله لأنك إن شكرت الله عزَّ وجل وحمدته وجدت نفسك مطوقاً بفضل الله عليك بذلك، لئن شكرتم لأزيدنكم.. أما إن تكبرت بنعمة الله عليك فقد وجدت لنفسك فضلاً في هذه النعمة وهذا هو الشرك بذاته، وكم توعد الله تعالى المستكبر في كتابه. ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، إن الحقد والحسد والضغينة وحب الدنيا وكل ذلك آفات قلبية لا تظهر لنا ولكنها تنطوي القلوب عليها فتهلك صاحبها، وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى أن نلاحظ قلوبنا وأن نراقب مشاعرنا، وأن نحاسب أنفسنا، فإذا ما وجدنا فينا آفة قلبية فلنعمد إلى استئصالها بالسبل التي أرشدنا إليها علماؤنا، وقد كان الإمام الغزالي – رحمه الله تعالى- قد أفرد لهذا الأمر كتابه إحياء علماء الدين، وآخرون من كبار الصالحين والمرشدين والدعاة إلى الله عزَّ وجل كانوا قد وجهوا إلى ضرورة الاهتمام بمعالجة آفات القلب وأمراضه، بمعالجة قلوبنا من باطن الإثم الذي حذرنا ربنا تبارك وتعالى منه ونهانا أن نقع فيه.

أيها المسلمون، إذا عدنا إلى أزمتنا التي نعاني منها لوجدنا أنها نتيجة لباطن الإثم أكثر من كونها لظاهر الإثم، ففيها ظاهر الإثم من اعتداء على الناس ومخالفة لشرع الله، ولكن الأخطر من ذلك أن كثيراً ممن خاضوا غمار هذه الفتنة إنما خاضوا غمارها حقداً منهم وحسداً منهم وضغينة منهم، وتكبراً منهم، لطالما نُصح من نُصح فاستكبر على النصح، ولطالما قيل له: يا رجل ارعوِ فهذا مسلك خاطئ ونفقٌ مظلم، فصده عن ذلك كبره، وصده عن ذلك حقده، وحال بينه وبين الاستجابة أمراض قلبه. وهذا أمر واضح في مقدماته واضح في نتائجه، نعم لو عدنا إلى أسباب أزمتنا لوجدنا أن كلا الإثمين هما وراء هذه الأزمة، أما بالنسبة للظاهر ربنا تبارك وتعالى يقول:﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ وهو إشارة إلى الآثام الظاهرة من أكل لأموال الناس بالباطل، من نظر للمحرمات، إلى المجالس المحرمة إلى سائر الآثام التي نراها كلنا في مجتمعنا وقد انتشرت وتفشت، وكلنا بحاجة لأن نحذر منها ونكف عنها، أما قضية باطن الإثم فهي في الحقيقة السبب الأخطر في كل ما نعانيه من مصائب قد وقعنا فيها، الكبر أدى إلى عدم الإصغاء إلى نصح الناصحين، وإلى رفض كلمة الحق التي صدع بها

الناصحون، والحقد أعمى الأعين والقلوب، والحسد الذي ضاق به صدر أولئك الذين صدهم الحسد عن الحق وعن الإصغاء إلى النصح والعمل بمقتضاه. نعم إن باطن الإثم وراء كل ما نعانيه، والدواء الذي ينبغي أن نعالج به الأنفس ونداوي به الجراح، إنما هو تجديد الصلة بالله وتوثيق الصلة بالله من خلال صدق التوبة إلى الله وحقيقة الاستغفار الصادق إلى الله عزّ وجل مما ارتكبته جوارحنا ومما انطوت عليه قلوبنا.. أن نراقب هذه القلوب لأنها موضع نظر الله عزَّ وجل فهو مطلع على ما في قلوبنا من أمراض تستنزل غضب الله على صاحبها، وتصده عن الحق وتمنعه من الإصغاء إليه والعمل بمقتضاه، نحن اليوم بحاجة إلى أن يعمر قلوبنا ذكر الله خشية الله محبة الله، الحياء من الله، غير هذا لا يمكن أن يحول بيننا وبين آثامنا، غير هذا لا يمكن أن يفيد... نحن عاجزون نحن ضعفاء، وإنما نستطيع أن نقاوم هذه الآفات بتوثيق الصلة بالله عزّ وجل، وتوطيد العلاقة بين هذه القلوب ومراقبة الله عزّ وجل، إن التزكية إنما تكون بتوثيق صلة هذه القلوب بالله لأنها موضع نظر الله ولأنها بيت الذكر، نعم، الذكر اللساني عظيم وله شأنه وله أجره، إلا أن الذكر الحقيقي إنما هو في القلوب، الذكر الحقيقي إنما هو الذي يحي هذه القلوب لتصبح بيتاً لمحبة الله وعرشاً يتربع عليه ذكر الله عزَّ وجل ومخافة الله سبحانه وتعالى ومحبته والحياء منه، عندما تكون صلتي بالله عزَّ وجل وثيقة ودائماً يستكن قلبي وينطوي على مراقبة الله فإن ذلك سيردعني عن أن ترتكب جوارحي مخالفة أو معصية، أو أن ينطوي قلبي على آفة لا يرضى الله عزَّ وجل بها, وهو المطلع على ما تنطوي عليه قلوبنا.

أسأل الله أن يطهرنا من ظاهر الإثم وباطنه، وأن يدفع بنا إلى صدق التوبة إليه وصدق الإنابة إليه حتى يرفع الله تعالى عنا هذا البلاء، وحتى يكشف الله عنا هذه الغمة إنه سميع مجيب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة 2016/07/22